الاحياء مع اليأس

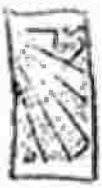

بقلم: زكى توفيق

مضت أكثر من ساعة ، وسلمان جالس فى مكانه على التخت ، متكورا ·· وعيناه الغائرتان ترمقان الطريق بلهفة ، وكأنهما تنتظران شيئا لابد من مجيئه·· عاجلا أو آجلا ·

ومرقت من امام عينيه ، فيما مرق من مئات السيارات والسايلة ، سيارة صغيرة عادية ، لم يأبه لها اول الامر ، ثم جذبت نظره فجأة ·· فقد وقفت على مسافة قصيرة من المقهى الذى يجلس فيه · ثم نزل منها شاب كان يركب فيها وحده ، وقصد من فوره الى محل تصليح السيارات ، الذى وقفت أمامه السيارة ·

وهب صاحب المحل الى لقائه · ودار بينهما كلام قصير ، هز بعده صاحب المحل رأسه معبرا عن أسفه ·· فهو لم يستطع ــ كما بدا لسلمان ــ أن يقضى للشاب حاجته · واستدار راسا هما الى جهته ·· رأس صاحب المحل ، مع اشارة طويلة من يده · ثم رأس الشاب ايضا وتبادلا كلاما آخر ،لم يلبث الشاب بعده ان القى بتحية سريعة من يده ، مودعا بها صاحب المحل وشاكرا حسن لقائه · ثم سار بخطوات ثابتة ، الى حيث يجلس سلمان ·· فى المقهى الصغير ، الذى اتخذ منه محلا لمراجعته منذ اكثر من عشر سنين ·

واعتدل سلمان فى جلسته ، ولمعت عيناه جذلا · وسرعان ما نهض قائما ، ليلقى الشاب القادم اليه · ووجد يده اليمنى ، بدون ما وعى منه ، تخشخش بكومة المفاتيح الصغيرة ، التى حشا بها جيب سترته · ووجد يده اليسرى بدون وعى منه ايضا ، تتحسس كومة اخرى من المفاتيح ، كان وضعها فى جيبه الايسر حين غادر البيت فى الصباح ·· وكأنه يريد الاطمئنان عليها ، أو يريد ان يستمد منها العون والقوة ·

وطلب اليه صاحب السيارة ، ان يعالج قفل الصندوق الخلفى لسيارته·· حيث انكسر مفتاحه ، وظل جزء منه فى داخل القفل · ولم يعد فى الامكان فتح الصندوق ·

ان مهمة سلمان هذه سهلة جدا · ولا تتطلب منه اكثر من ان يجرب فى القفل ·· مفتاحين ، أو ثلاثة ، أو أربعة من مجموعة المفاتيح التى يملأ بها جيوبه والتى هى كل عدته ورأس ماله فى كسب عيشه ·· وتمر بضع لحظات هينة ·· ثم

لا يلبث بعدها القفل .. أى قفل .. ان ينفتح .

ولكن هذه المهمة ذاتها .. صعبة ، واحيانا صعبة جدا ، بالنسبة لمصلحى الاقفال أو الحدادين أو امثالهم .. ممن لا يحترفون مهنة سلمان .. التى تعلم دقائقها وفنونها ، بتجاربه الخاصة .. عبر السنين الطويلة ، والصبر المرير ، ولهذا اعتاد ان يفرض شروطه على مراجعيه .. ملء صدره وملء فمه ، واثقا انها لن ترد بحال .. فكان أن قال ..

ـ انى افك القفل ، بس على شرط .. آخذ نص دينار .

فاجاب الشاب صاحب السيارة .. وعلى وجهه علائم الدهشة والانزعاج .

ـ نص دينار ؟ اشدعوة يمعود ؟ .

فرد عليه سلمان بحزم قاطع .

ـ هاى هى .. نص دينار . ماتقبل، الله وياك .

ووجد الشاب نفسه مضطرا لقبول هذا العرض الجائر . فلم يكن فى المدينة الصغيرة كلها ، من يزاول هذه الصنعة .. غير سلمان .

وجرب سلمان مفتاحه الاول فى القفل .. فلم ينفتح . ثم جرب مفتاحا ثانيا . وجرب ثالثا . ورابعا وخامسا .. دون ان ينفتح القفل . وكانت ابتسامة الرضا والتفاؤل ، لا تزال ترتسم على شفتيه الباهتتين .. دون ان يعتريها القلق .

وتركه الشاب لقضاء شغل له ، حتى ينتهى من مهمته . فشيعه سلمان بنظرة ساخرة ، وكأنه يقول فيها .. ولكنك لن تبتعد بضع خطوات يا هذا ، الا ويكون القفل قد انفتح .. فلماذا لا تنتظر ؟ .

ولكن الذى حـــدث ، لم يكن فى الحسبان .

لقـــد جرب سلمان اكثر من عشرين مفتاحا ، دون ان يجد فى مجموعته المفتاح المنشـــود .. حتى تعب ظهره واعياه الانحناء . فجلس القرفصاء وراء السيارة .. ومضى يجرب مفاتيحه الاخرى ، تحت الشمس المحرقة ، واحدا بعد الآخر .. فى صبر وأناة .

ومع كل مفتاح يفشل فى تجربته ، يتقلص جزء آخر من ابتسامة الرضـــا والاعتداد التى كانت ملقية ظلها عـــلى وجهه النحيل كله ، ويحس بنفسه .. وكانها تتهاوى شيئا فشيئا ، فى اعماق بئر لا قرار لها .

وانقضت ثلاث ســـاعات . وجرب سلمان مفاتيحه كلها . ثم عاد فجربهـا أكثر من مرة .. والقفل لم ينفتح ! . وكانما ركبته قوة خفية ، اصرت على ابقائه مقفلا فى وجه سلمان ، وفى وجه مفاتيحه ! .

وتيقن فى النهاية من فشله . فنهض متحاملا على ساقيه المكدودتين ، والعرق ينصبب من جبينه ، وقد استحال كتلة من اليأس والالم .

والقى سلمان على المفاتيح المكومة عند قدميه ، نظرة تفيض بالسخط والمرارة .. وبصق عليها بقوة . ثم عاد فانحنى عليها ليجمعها من الارض ، فان هذه المفاتيح ، وان خيبت امله وجرحت كبرياءه .. هى وحدها مصدر رزقه . وهى .. هى كنزه الذى لا يفنى .

وعاد مخذولا الى مكانه على التخت . ولم يزد ان قال للشاب صاحب السيارة

ـ يرحم ابـــــوك ، امنين مشترى هالسيارة ؟! .

ولم تكد السيارة الصغيرة تغـــادر مكانها ، حتى جاءت سيارة أخرى ... تقصد سلمان ، وتطلب اليه عين الطلب

ولم يجد سلمان فى نفسه المهزومة ، ما يشجعه على المغـــالاة فى الطلب .. كما اعتاد ان يغالى فيما يطلب من اجور من قبل .. فى عزم لا يريم . فقام الى عمله .. بدون ثمة كلام ! .

وقبل ان يجرب مفتـــاحه الاول .. بادره صاحب السيارة من خلفه .

ـ بالله كيل ما تشتغل ، خلى نتفق عالاجرة .. مواحسن من اللفاوى ؟ .

فأجاب سلمان من دون تردد .

ـ حسب امرك .

فالقى صاحب السيارة بعرضه ، بقوة واصرار .

ـ اذا لكبت لى مفتاح للقفل ، انطيك مية فلس .. صار ؟ .

ومرة أخرى أجاب سلمان من غـــير تردد .

ـ حسب امرك اغاتى .

ووضع أكوام المفاتيح كلها أمامه .. وجلس على الارض متربعا . وبدأ يعالج قفل الصندوق .. وجرب المفتاح الاول فلم ينفتح القفل . ثم جرب المفتاح الثانى .. وفى لحظة واحدة ، انفتح .

وضحك سلمان ضحكة تفيض بالمرارة وتمتم بضع كلمات من السباب البذىء .. اودعها كل ماجاش فى نفســـه من سخط وحنق .

ومرة أخرى .. بصـــق على كومة المفاتيح . ولكن بصقته هذه المرة ، كانت اقوى بكثير من تلك التى بصقها عـــلى مفاتيحه .. قبل لحظات .